

هل تراجع الأمير الصنعاني عن كتاب ﴿تطهير الاعتقاد﴾ عز أدران الإسلام ؟

Dr. hemmal elhadj¹

د . همال الحاج*

Faculty of Islamic Sciences
University alger 1

كلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر 1

البريد الإلكتروني: hml10000@gmail.com

ملخص:

من الصعب جدًا التحفظ عن الأعمال التي اشتهرت نسبتها إلى مؤلفيها، بعد تأكد هذه النسبة من مؤلفيها وشهادات المعاصرين. ويمثل في هذا الصدد كتاب تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، لحمد بن إسماعيل الصنعاني المتوفى سنة 1181هـ، الذي اشتهر اشتهارا واسعا بين أتباع الدعوة الوهابية، بما قدمه هذا الكتاب من دعم كبير للدعوة أكثر من الدعم الذي قدمته القصيدة النجدية التي أثنى فيها الصنعاني على إمام الدعوة الوهابية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، خاصة وأن هذه الأخيرة عرفت معارضة شديدة بقصيدة التوبة التي رجع فيها الصنعاني عن تأييده لفكرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

لكن عدم اشتهار كتاب تطهير الاعتقاد في بيئة الصنعاني اليمينية، وانتشار خلاف مضمونه في هذه البيئة، حسبا هو مثبت في كتاب محو الحوبة بشرح أبيات التوبة، كما نقله الشوكاني في كتابه الدر النضيد، يثير أكثر من سؤال حول مدى استمرار الصنعاني على الأفكار التي ضمنها في تطهير الاعتقاد.

الكلمات المفتاحية: محمد بن إسماعيل الصنعاني، الأمير الصنعاني، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، محمد بن عبد الوهاب، الدعوة الوهابية، القصيدة النجدية، محو الحوبة بشرح قصيدة التوبة.

Résumé

Il est très difficile de douter de l'attribution de certaines œuvres célèbres à leurs propriétaires, surtout si cette attribution est appuyée par les témoignages de leurs auteurs ou est documentée par les textes de leurs contemporains.

Dans cet épéiste sera apporté le livre de Muhammad bin Ismail Al-Sana'ani. Tathir elitikaad

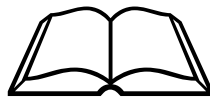
Ce livre, ainsi que le poème dans lequel al-Sana'ani louait Muhammad ibn Abd al-Wahhab, représentait le large soutien et la propagande de l'appel wahhabite, qui était fortement opposé par les cercles scientifiques, sociaux et politiques.

Tathir elitikaad min adraan elilhaad coïncidé avec l'idée prêchée par le cheikh Muhammad bin Abdul Wahhab, au point de citer des travaux d'autrui.

Mais al-Sana'ani a composé le poème de repentance avec son explication, où il se retire du poème de louange et du contenu du livre Purifier la foi, et de la propagation des opinions trouvées dans ce commentaire, contrairement au silence sur le contenu du poème ou le contenu du livre Purifier la foi.

Tout ceci invite à s'interroger sur le sort de ce livre, s'il nous est parvenu dans l'état où le prince San'ani l'a laissé, ou si ce dernier l'a rétracté, comme cela apparaît dans le texte cité par al-Shawkani dans al. -Durr al-Nadeed.

les mots clés: Muhammad ibn Ismail al-Sana'ani, Prince al-Sana'ani, purification de la croyance, Muhammad ibn Abd al-Wahhab, Wahhabisme, poème Najd, poème de repentance, effacement d'al-Huba Explication du poème de repentance



1. تمهيد:

قد يكون هذا السؤال ليس أكثر من تشويش لا مسوغ له، بعد توارد النقول على نسبة تطهير الاعتقاد إلى الصنعاني، وتأكد هذه النسبة بشاهدين منه على الأقل؛ الشاهد الأول استشهاد الصنعاني في كتاب تطهير الاعتقاد بأبيات من القصيدة النجدية، وهي قصيدة ثابتة النسبة إلى الأمير الصنعاني، فيكون تطهير الاعتقاد ثابت النسبة إليه¹، والشاهد الثاني إحالة الصنعاني على كتاب تطهير الاعتقاد في استفتاء وجه إليه بخصوص الذبائح على القبور وغيرها². وهذان الشاهدان كافيان لرفع أي تحفظ حول نسبة نشرة تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد المتداولة إلى الصنعاني، إلا أنهما غير كافيين لنسبة كل ما ورد في هذه النشرة إليه، لما تضمنته نشرات الكتاب من شواهد غريبة يستبعد أن تصدر عن الصنعاني الذي بلغ درجة الاجتهاد، مما يفرض احتمال تدخل يد التصرف في نشرة تطهير الاعتقاد. وأكثر من تتوجه إليه قسمة التصرف الجهات التي روجت لانتشار تطهير الاعتقاد، أو التي خدمها ظهور هذا الكتاب، وليس هناك إلا أنصار الدعوة الوهابية الذين قدم لهم هذا الكتاب دعاية ضخمة تتجاوز ما قدمته القصيدة النجدية، لخلوصه من شائبة النقد الذي طال القصيدة بقصيدة التراجع التي مطلعها رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي³، فيكون هذا الكتاب قدّم خدمة جليلة للفكرة الإصلاحية الجديدة حملت الأتباع على العناية به والاهتمام والرعاية. ومن مظاهر هذه العناية كثرة نشرات التي عرفها متن تطهير الاعتقاد، فضلا عن الشروح والتعليق الموضوعية حوله. ومن أسباب تعدد النشر أيضا التصرف الذي طال الكتاب فشجع على إعادة نشره اعتمادا على أكثر النسخ وثاقفة، وهي نسخة مكتوبة في حياة الصنعاني من طرف أحد تلاميذه، فهل بقي احتمالاً للتصرف بعد ظهور هذه النسخة، وإذا انتفى احتمال التصرف، فهل ثمة احتمال لتراجع المؤلف عنه؟

2. نشرات كتاب تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد: أولاً: نشر كتاب تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد

للسنعاني عدة نشرات؛ منها ما هو موثق وكثير منها دون توثيق، ولا أرى ضرورة الرجوع إلى كل نشرات

1- ينظر تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، تحقيق أبي العباس الشجري، ص 61، 62

2- ينظر مسألة في الذبائح على القبور وغيرها، حققها وخرج أحاديثها عقيل بن محمد المقطري، ص 45 وقارنه مع تطهير الاعتقاد، ص 62، 65

3- سيأتي الكلام عن هذه القصيدة في الفقرة الثالثة

الكتاب لا تتسع انتشارها، وأكتفي بما في نشرة الشيخ أبي العباس الشّحري، باعتبارها آخر نشرة للكتاب. وقد ذكر الشّحري أنّ النسخة التي عثر عليها " مضبوطة على طبعة عن أصل المصنّف وعدّة نسخ خطيّة نفيسة أخرى ¹ .

ثانياً: تكلم الشّحري بين يديّ النسخ الخمسة التي اعتمدها في نشر الكتاب، عن عمل أستاذين سبقاه إلى العناية بتطهير الاعتقاد؛ الأول عمل الدكتور ناصر بن علي بن عايض بن حسن الشيخ، والثاني عمل الباحث محمد الصغير ابن قائد المقطري. وينحصر أهم ما وجهه الشّحري من النقد إلى العمل الأول، في الزيادات التي انفردت بها بعض النسخ الضعيفة التي عاد إليها الدكتور، مما يتعارض في مضمونه مع فكرة الكتاب ويعارض ما ثبت في النسخ القوية، قال الشيخ الشّحري: " فهذه الزوائد لا يفرح بها؛ لأنها مدسوسة على الكتاب، وفيها ما يخالف عقيدة أهل السنة، وما قرره ابن الأمير في كتابه التطهير ² . فحكم الشيخ الشّحري على الزيادات خارج النسخ التي اعتمدها بالنكارة، انسجاماً مع حكم المحدثين في مخالفة الضعيف لمن هو أوثق منه. أما العمل الثاني فيرتكز النقد الذي وجهه إليه الشّحري، في السقط الكثير وبعض التحريفات، نتيجة عدم اعتماد صاحبه على أصل ليس في محل الاعتماد التام ³ !.

ثالثاً: ذكر الشّحري أنّه جعل أصل الكتاب طبعة قديمة عن أصل خط المصنّف إلا أنّه لم يكشف عن هذا الأصل، والظاهر أنّه اكتفى بطبعة صرح فيها بأنّها منقولة عن أصل خطي، " وهذا أعلى ما يمكن اعتماده في الضبط ⁴ ، كذا قال، وفي تقديره أنّه لو كان الأصل مع المحقق لعرض نماذج منه، على نحو ما يقوم به المحققون في قسم الدراسة! ". ثم ذكر المحقق أنّه قابل الأصل على نسخة فريدة كتبت في حياة المصنّف سنة 1169هـ، قبل وفاته باثنتي عشرة سنة، وهي أقدم النسخ عنده؛ خطها جميل وعليها تعليقات بخط مغاير ⁵ . ثمّ أنهى المحقق وصفه لهذه النسخة بأنّها " مطابقة للمطبوع عن خط المصنّف رحمه الله إلا فروقاً يسيرة، ولعلّه نقل عن خط المصنّف، والله أعلم ⁶ .

1- ولقد وُشّح الشّحري هذه العبارة غلاف نشرته تميمنا لتحقيقه.

2- تطهير الاعتقاد، مقدّمة تحقيق الشّحري، ص 9

3- تطهير الاعتقاد، مقدّمة تحقيق الشّحري، ص 12

4- تطهير الاعتقاد، مقدّمة تحقيق الشّحري، ص 15

5- تطهير الاعتقاد، مقدّمة تحقيق الشّحري، ص 16

6- تطهير الاعتقاد، مقدّمة تحقيق الشّحري، ص 17

أما النسخ الثلاثة الأخرى فضعيفة حسب تقييم المحقق؛ فالأولى منهن، وهي نسخة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، فمع أنّها كُتبت في حياة المؤلف سنة 1181 هـ، ففيها أخطاء وسقوط. أما النسخة الثانية المكتوبة سنة 1305 هـ، فناسخها مجهول، وبها زيادات تخالف أصول الكتاب المعتمدة، كما أنّها منقولة عن أصل دس على أصل الكتاب، وقد حصل فيها سقط وتحريف، ومع تأخرها لا يعتمد عليها¹. أما النسخة الثالثة الأخيرة نسخة مكتبة الرياض، فلا يوجد بها تاريخ نسخ ولا اسم ناسخ، إلا أنّ في طرحتها وفقاً عام 1286، وهي من مصوّرات مكتبة الحرم الشريف؛ خطها جميل وواضح جداً وفيها سقوط².

3. تقييم نسخة سعيد بن حسن العنسي (1150 - 1223 هـ):

كانت النسخ الخمسة السابقة كلّ النسخ التي رجع إليها المحقق لضبط النص، وقد تبين أنّ ثلاثة منها لا تحوز القيمة التي تجعلها في محل الاعتماد بمقاييس المحقق، فلا وجه لحكمه على طبعته بأنّها "مضبوطة على طبعة عن أصل المصنّف وعدة أصول خطية نفيسة"، إلا إذا كان يقصد نسخة تلميذ الصنعاني، وهو سعيد بن حسن العنسي، وهذه النسخة تحوم حولها بعض التساؤلات التي تجعلها في محل التحفظ، وأهم التساؤلات التي يمكن أن تطرح:

الأول: تاريخ كتابة النسخة هو 19 ذو الحجة سنة 1169 هـ، وفي هامشها: "بلغ قصاصة حسب الإمكان من المحرم سنة 1169 (كذا والصواب 1170)، والحمد لله رب العالمين، كتبه سعيد بن حسن العنسي وفقه الله".⁴ فالظاهر أنّ العنسي نقل عن هذه النسخة، لا عن نسخة المؤلف كما احتمله المحقق، بدليل قوله (بلغ قصاصة). وبلغ أحد التعابير التي يستعملها النساخ عند المقابلة، والقصاصة القطعة من الورق، وتستعمل للتعبير عن المسودة؛ فكان العنسي كتبها تحصيلاً لتراث الأمير الصنعاني وتركاً بمكانته العلمية التي أصبحت مضرب المثل في اليمن كلّها، وبقيت عنده ضمن المسودات التي لم يحتفل بها، بدليل أنه لم يعلّق عليها بشيء إلا ما ورد في آخر

1- تطهير الاعتقاد، مقدّمة الشّحري، ص 17، 18

2- تطهير الاعتقاد، مقدّمة الشّحري، ص 18

3- تُنظر ترجمته - محمد زبارة، نيل الوطر من تراجم أهل اليمن في القرن الثالث عشر، ص 5، 6، ج 2 د. ت، وشرف الدين القاسمي،

مطلع الأعمار ومجمع الأنهار في ذكر المشاهير من علماء مدينة ذمار ص 312، 325

4- تطهير الاعتقاد، مقدّمة الشّحري، ص 17

الكتاب تقريباً، عند حديث الصنعاني عن قبة القبر النبوي، فعلق المحقق على هذا الموضوع بقوله: " وقع في (ع)، وهي نسخة العنسي، فوق السطر هنا ما صورته: وذلك بعد انقراض الدولة العباسية ¹. ومما يؤكد عدم الاحتفال بهذه النسخة، عدم ذكرها ضمن مرويّات العنسي عن الصنعاني؛ لا في ديوان الأمير الصنعاني ولا في ترجمة العنسي عند معاصريه، إلّا ما تضمنه البيت الثاني والعشرون من الإجازة، وهو قول الصنعاني رحمه الله:

ولنا المسائل والرسائل عدّها أمر بعيد²

الثاني: أنّ الصنعاني كتب القصيدة النجدية أو سلام على نجد سنة 1163هـ، وكتاب تطهير الاعتقاد كُتب بعدها؛ إما سنة 1169هـ كما تحتمله نسخة العنسي، أو قبلها كما تحتمله الإحالة على القصيدة في كتاب تطهير الاعتقاد، وليس في القصيدة ولا في قصيدة التراجع التي كتبها الأمير الصنعاني سنة 1170هـ أدنى إشارة إلى تطهير الاعتقاد³، وهو ما يفرض احتمال عدم قصد الصنعاني إلى إشهار كتاب تطهير الاعتقاد، ويعين على هذا الاحتمال ما ورد في خطبة تطهير الاعتقاد، بعد الحمدلة والصلاة على النبي المختار، قال: " وجب علي تأليفه وتعين علي ترصيفه ⁴. قال المحقق في الهامش: " كذا في الأصل ⁵، وفي جميع النسخ تضيق ". قلت: الصواب ما في جميع النسخ لموافقته مبادئ التحقيق وموافقته المعنى والسياق؛ فكلية (وجب) هي (تعين)، و(تأليفه) هي (ترصيفه)، فتكون الجملة مكررة لغير ضرورة، والمعنى على (تضيق) ظاهر؛ أي أنه ضاق عليه سبك عبارات وألفاظ الكتاب، ففيه إشارة إلى أنه جعله كالمسودة التي أبقاها عنده، ثم وقعت عند العنسي فاحتفظ بها إلى أن وجدت ضمن مكتبته، فيبدو أنّ الصنعاني قصد إلى عدم إذاعة الكتاب، وهو ما يقوي احتمال تراجعه عن مجموع أفكار الكتاب لا جميعها، تماماً مثل قصيدة التراجع وأصلها النجدية؛ فإنه لم يتراجع في الثانية عن كل ما أورده في الأولى بل عن أشياء محددة، وهي التكفير العام وإراقة الدماء، وسيأتي بيان لهذا وذاك فيما يأتي.

1- تطهير الاعتقاد، ص 96، هامش 6

2- ديوان الأمير الصنعاني، ص 143

3- ديوان الأمير الصنعاني، المرجع السابق، ص: 128، 140

4- تطهير الاعتقاد، ص 35

5- ينبغي الانتباه إلى أنّ الأصل هي المطبوعة المنقولة عن أصل كُتب بخط المصنّف، وقد سبق نقد تقييم المحقق لهذا الأصل.

الثالث: أن العنسي من أئمة الشيعة الزيدية، وقد مدحه شرف الدين القاسمي المتوفى سنة 1221هـ، فبالغ في مدحه، ومما قاله فيه رحمهما الله تعالى¹: " القاضي العلامة المقدم في الذكر، علم الشيعة الأعلام ولسان جهابذة الحكام، العالم المغزار وقمر الشيعة النوار؛ سعيد بن حسن بن سعيد بن عبد الله العنسي، عافاه الله تعالى. هو من كبار الشيعة وذوي الجاهات الوسيعة، من العلماء المحققين المحققين ومن أهل الفضل والورع في الدين، ذو أخلاق شريفة ومكارم منيفة وشمائل لطيفة". فإذا كان العنسي بين الزيدية بهذه المنزلة وتحقق أن الوهابيين لم يكونوا محل رضا بينهم، كما أفاض بإيضاحه عالم يمحي معاصر لهم، وهو لطف الله جحاف (ت: سنة 1243هـ) في درر نحر الحور العين بسيرة الإمام المنصور علي وأعلام دولته الميامين²، تأكد أن احتفاظ العنسي بنسخة من كتاب تطهير الاعتقاد باعتباره من آثار الصنعاني لا باعتباره في نفسه، ويعززه مسارعة العنسي إلى نسخه بعيد تدوين الصنعاني له بقريب، وعمر العنسي إذ ذاك عشرون سنة، فيكون نسخه في هذا الطرف بمثابة الملاحقة السريعة لكل ما تصدره المرجعية، بغض النظر عن تثبيت ما يصدر عنها أو مراجعته، على نحو ما ورد في القصيدة النجدية من مباركة للدعوة النجدية، وما أعقب تلك المباركة من تراجع بعد ذلك، وهو ما سيتم توضيحه في الفقرة الآتية.

4. بين القصيدة النجدية وقصيدة التراجع:

كانت القصيدة النجدية ونظيرتها قصيدة التراجع مثار جدل كبير بين أنصار الدعوة الوهابية وخصومهم من الصوفية أو المتهذه، وانقسم الرأي العلمي بشأنهما إلى ثلاثة آراء رئيسة؛ الأول يثبت القصيدتين ويرى أن الصنعاني تراجع، والثاني مثل الأول إلا أنه ينفي أن يكون ثمة تراجع، والثالث يثبت الأولى وينفي نسبة قصيدة التراجع إلى الصنعاني. والرأي الأول ذهب إليه الجمهور من المتهذه والصوفية، والرأي الثاني ذهب إليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والرأي الثالث ذهب إليه أكثر علماء الدعوة الوهابية، ومن أوائل من انتصب للدفاع عنه الشيخ سليمان بن سحمان، معتبرا قصيدة التراجع موضوعة مكذوبة³.

1- مطلع الأقطار، المرجع السابق، ص 312

2- نشر الكتاب بتحقيق إبراهيم الحفي.

3- ينظر سليمان بن سحمان، تبرئة الشيخين الإمامين من تزوير أهل الكذب والمين، ص 1

وأهم معتمد أصحاب الرأي الثالث في نفي نسبة القصيدة إلى الصنعاني هو مخالفة نفسها لنفس تطهير الاعتقاد، يقول الشيخ سليمان بن سحمان¹: "وقفت سنة ألف وثلاثمائة وثلاثين بعد الهجرة النبوية على منظومة وشرحها تنسب إلى الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله تعالى أرسلها إلينا بعض الإخوان، وهي بقلم محمد بن حسين ابن محسن الأنصاري اليماني، فلما تأملتها علمت يقيناً أنّها موضوعة مكذوبة على الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني، وذلك أنّ اعتراضه على الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى بذلك اعتراض جاهل متعلم يصان عنه كلام الأمير محمد بن إسماعيل لعلو قدره وعظم فضله وإمامته وقام رغبته في السنة وذم البدع وأهلها، فكيف يجوز أن ينسب إليه مثل هذا الكلام الذي لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية والأحكام المعلومة النبوية؟ وهل يقول مثل هذا الاعتراض إلا جاهل؟ فلو لم يكن عن الأمير محمد قول يناقض هذا لعلمنا أنه لا يقوله؛ لأنه يناقض ما ذكره في تطهير الاعتقاد وفي غيره من كتبه، وقد بلغني أنّ الذي وضع هذا النظم وشرحه رجل من ولد ولده، وهو اللّائق به لعدم معرفته ورسوخه في العلم، فاستعنت الله على ردّ إفكه وعدوانه وكذبه وظلمه وبهتانه، ليعلم الواقف عليها براءة الأمير محمد بن إسماعيل منها، وأنّها موضوعة مكذوبة عليه."

وقبل مناقشة الاعتبار الذي بنى عليه الشيخ سليمان بن سحمان تزييف نسبة قصيدة التراجع إلى الأمير الصنعاني، أقدم خلاصة عن القصيدة النجدية وأهم المحاور التي تناولتها.

أولاً، كتب الأمير الصنعاني القصيدة النجدية سنة 1163 هـ، كما أثبتته الصنعاني نفسه في ديوانه جمع ابنه عبد الله، قال²: "لما طارت الأخبار بظهور عالم في نجد يقال له محمد بن عبد الوهاب، ووصل إلينا بعض تلاميذه وأخبرنا عن حقائق أحواله وتشميره في التقوى وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اشتاقت النفس إلى مكاتبته بهذه الأبيات سنة 1163 وأرسلناها من طريق مكة المشرفة، وهي: ...". وهي تحتوي على خمسة وسبعين بيتاً، ومطلعها:

ثم استهلّها بمدح للشيخ محمد بن عبد الوهاب في خمسة أبيات، وثناها بإنكار كل الطوائف لرأيه في بيت واحد، ثم انتقل إلى الكلام عن عدم اعتبار أقاويل الرجال في ثلاثة أبيات. ثم يعود إلى الثناء على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بما أسسه من الدعوة إلى الاجتهاد وموافقة الصنعاني له فيها، في ثلاثة أبيات، ثم يختم هذا المقطع

1- تبرئة الشيخين، المرجع السابق، ص1

2- ديوان الصنعاني، المرجع السابق، ص128

الأول بالكلام عن جوهر دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب في خمسة أبيات، يحسن إيرادها لاستشهاد الصنعاني بها في تطهير الاعتقاد¹:

ويعمر أركان الشريعة هادما	مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود بنس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة	أهلت لغير الله جهلاً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل	ويلتمس الأركان منهن بالأيدي

ثم انتقل إلى الكلام على نقد دلائل الخيرات للجزولي، والظاهر منها أنه يؤيد تحريق الشيخ لها، في خمسة أبيات، وضمن البيتين الأخيرين موافقته على الاجتهاد، وهو قوله فيهما:

وصيرها الجهال للذكر ضرورة	يرى درسها أذكى لديهم من الحمد
قد سرتني ما جاء من طريقه	وكنتم أرى هذي الطريقة لي وجدي

ثم ينتقل إلى الكلام على ما يسميه بدعة التقليد للمذاهب الأربعة، وتشنيع المقلدين بها على الشيخ ابن عبد الوهاب بالباطل، في ثلاثة عشر بيتاً، ومنها ثلاثة أبيات تتحدث عن موافقته له في دعوة التمسك بالأدلة وترك التقليد:

وليس له ذنب سوى أنه غدا	يتابع قول الله في الحل والعقد
ويتبع أقوال النبي محمد	وهل غيره بالله في الشرع من يهدي

ثم انتقل إلى فصل في الثناء على أهل الحديث، في ثلاثة عشر بيتاً أيضاً، لم يخلها من النعي على المقلدة والتقليد ومدح التمسك بالكتاب والسنة، وأنهى هذا المقطع بقوله:

فمقتدياً في الحق كن لا مقلداً	وحل أخا التقليد في الأسر بالقدر
-------------------------------	---------------------------------

1- تطهير الاعتقاد، المرجع السابق، ص: 61، 62. وفي التطهير - (مقبلاً) على الحال

ثم انتقل إلى الكلام في عقيدة الحلول والاتحاد، ونعى رأي ابن عربي في الفتوحات والفصوص، في خمسة عشر بيتاً، لم يخلها هي الأخرى من نعي التقليد، كما في الأبيات الثلاثة الأخيرة.

ثم ختم القصيدة بالكلام عن غربة الدين وقلة المسعفين، في أحد عشر بيتاً، وأنهاها بطلب يلتبس فيه من الشيخ ابن عبد الوهاب أن يكتب له بجواب نظماً، كما هي عادة العلماء والأدباء، لكن الظاهر أن الشيخ لم يقم بذلك.

ثانياً، رأينا أن القصيدة احتوت على خمسة وسبعين بيتاً، خمسة منها في خصوص التعلق بالقبور ودعاء أصحابها، وأغلبها في ناحية الاجتهاد والإنكار على المقلّدين والمتمسكين بالعادات وآراء الرجال. ويظهر جلياً من القصيدة أن احتفال الأمير بالشيخ ابن عبد الوهاب كان من هذه الناحية، فالأمير كان زيدياً إلا أنه نشأ على حب الحديث، كما في أحد أبيات القصيدة:

سلام على أهل الحديث فإنني نشأت على حب الأحاديث من مهدي

فلا يبعد أن الصنعاني تغاضى على سلوك ابن عبد الوهاب، بحكم أن موافقته له على أصل الاجتهاد وترك تقليد، ستكون كفيلة بإذابة أي خلاف محتمل، بالأخص إذا كانت الأخبار المنقولة عن ابن عبد الوهاب ليست مؤكدة، وهو ما تؤكد قصيدة التراجع التي لم يتراجع فيها الأمير الصنعاني عن كل ما أورده في قصيدة سلامي على نجد، وإنما تراجع عن تركية ابن عبد الوهاب بعد أن بلغته الأخبار الدقيقة عنه، وهو ما سيتم توضيحه في النقطة الثالثة:

ثالثاً، تقدّم أن جمهور الوهابية ينكرون قصيدة التراجع ويعتبرونها من تلفيقات خصومهم، إمعاناً من الخصوم في إغاثتهم وقطعاً لاستدلالهم بإمام مرجع مجتهد كالأمير الصنعاني، لكن الوهابية لم يقدموا دليلاً مقبولاً على رأيهم إلا دعوى اختلاف مضمون قصيدة التراجع عن عقيدة الصنعاني التي ضمنها كتبه وبالأخص كتاب تطهير الاعتقاد.

وأول ما يواجه به الوهابية هو ازدواجية منطقهم، ففي الوقت الذي يصحّحون فيه وثائق الخصم لتأييد فكرهم، يعتبرون هذه الوثائق مزورة ومكذوبة إذا تضمنت خلاف هذا الفكر؛ فقصيدة سلامي على نجد صحيحة ومعتبرة؛ لأنها تؤيد الفكرة الوهابية، وقصيدة رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي مكذوبة لأنها تتضمن تراجعاً! والقصيدتان مشهورتان عن الصنعاني وكلاهما موجودتان في ديوانه، ونقلهما أكثر من عالم معاصر للأمير الصنعاني، وهو ما حمل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي على الاعتراف بصحة نسبة قصيدة التراجع إلى الأمير

الصنعاني، كما وثّقه عنه عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام¹. كما وثّق نسبة القصيدة إلى الصنعاني مع شرحه لها الشوكاني، قال: "ومن جملة الشُّبُه التي عرضت لبعض أهل العلم ما جزم به السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير رحمه الله تعالى، في شرحه لأبياته التي يقول في أولها: رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي؛ فإنه قال: إن كفر هؤلاء المعتقدين للأموات هو من الكفر العملي لا الكفر الجحودي، ونقل ما ورد في كفر ...²". وأكثر من ذلك أن الشيخ مرید بن أحمد التميمي، وهو الذي أطلع الصنعاني عن أخبار الشيخ ابن عبد الوهاب باعتباره أحد أصحابه، وهو الذي نقلت القصيدة في الغالب من طريقه، صار هذا الشيخ من ألد الأعداء للشيخ ابن عبد الوهاب ودعوته³، وهو ما يؤكد أكثر تراجع الصنعاني عن تركيته للشيخ ابن عبد الوهاب؛ لأنه لا يقدم عالم كما في حالة الشيخ مرید، على التخلي عن مذهبه الوهابي إلا إذا كانت الحجج المُنْهَدَة له قوية، ولا يتحقق هذا التخلي إلا إذا كان الأمير الصنعاني قام فعلاً بتنفيذ هذا المذهب. ولترك الأمير الصنعاني يروي لنا ظروف نظمته لقصيدة التراجع وشرحه لها. قال الصنعاني: "لما بلغت هذه الأبيات نجدًا، وصل إلينا بعد أعوام من بلوغها إلى نجد رجل عالم يسمى مرید بن أحمد التميمي، كان وصوله في شهر صفر سنة 1170هـ، وأقام لدينا ثمانية أشهر، وحصل بعض كتب ابن تيمية وابن القيم بخطه. وفارقنا في عشرين شوال سنة 1170هـ راجعا إلى وطنه، ووصل من طريق الحجاز مع الحاج، وكان من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي وجهنا إليه الأبيات، فأخبرنا ببلوغها، ولم يأت بجواب عنها. وكان قد تقدّمه في الوصول إلينا بعد بلوغها الشيخ عبد الرحمن النجدي، ووصف من حال محمد بن عبد الوهاب أشياء أنكرناها؛ من سفكه الدماء ونهبه الأموال وتجاريه على قتل النفوس ولو بالاعتقال، وتكفيره الأمة الحمديّة في جميع الأقطار، فبقينا نتردد فيما نقله الشيخ عبد الرحمن حتى وصل الشيخ مرید، وله نبأه وأوصل بعض رسائل ابن عبد الوهاب التي جمعها في وجه تكفيره أهل الإيمان وقتلهم ونهبهم، وحقّق لنا أحواله وأقواله وأفعاله، فرأينا أحواله أحوال رجل عرف من الشريعة شطرا ولم يمعن النظر، ولا قرأ على من يهديه نهج الهداية ويدلّه على العلوم النافعة ويفقهه فيها، بل طالع بعض مؤلفات أبي العباس ابن تيمية ومؤلفات تلميذه ابن القيم الجوزية وقُلْدَهما من غير إتقان، مع أنّهما يحرمان التقليد. ولما حقّق لنا أحواله، ورأينا في الرسائل أقواله، وذكر لنا أنه عظم شأنه

1- ينظر عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، ص 418، ج 6

2- محمد بن علي الشوكاني، الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص 27

3- علماء نجد، المرجع السابق، ص 416، ج 6

بوصول الأبيات التي وجهناها إليه، وأنه يتعين علينا تقض ما قدمناه وحل ما أبرمناه، وكانت أبياتنا قد طارت كل مطار، وبلغت غالب الأقطار، وأتتنا فيها جوابات من مكة المشرفة ومن البصرة وغيرهما، إلا أنها جوابات خالية عن الإنصاف. ولما أخذ علينا الشيخ مريد ذلك تعين علينا؛ لئلا يكون سببا في شيء من هذه الأمور التي ارتكبتها ابن عبد الوهاب المذكور، كتبت أبياتا وشرحها، وأكثر من النقل عن ابن القيم وشيخه ابن تيمية؛ لأنهما عمدة الحنابلة¹.

ونستفيد من هذا التقرير، أن القصيدة الثانية لم تكن مجرد تراجع، بل كانت دينا في عنق الصنعاني بسبب الدعاية الكبيرة التي حققتها القصيدة النجدية، فكان الصنعاني أراد أن يستدرك بقصيدة التراجع مع الشرح الموضوع عليها، ما فاتته من اتساع انتشار القصيدة النجدية في الأقطار، وهو ما يبرر عدم إذاعته لتطهير الاعتقاد كما سبق إيضاحه. وكنت عزمت على تحليل قصيدة التراجع على نحو ما فعلت مع القصيدة الأولى، لولا أنني خشيت مغبة الاستطراد، وهي جدية بأن تفرد بالبحث والدراسة.

5. الشواهد المؤكدة على تراجع الأمير الصنعاني من داخل كتاب تطهير الاعتقاد:

اعتمد المحقق الشحري على خمس نسخ لنشر تطهير الاعتقاد، الأولى منها مطبوعة عن أصل صرح فيه بأنه منقول عن أصل بخط المؤلف، والثانية نسخة العنسي وهي مكتوبة في حياة الصنعاني، والنسخ الثلاثة الأخرى دون الأولين، لاشتمالها على التحريف وتخلل السقط. ورمز المحقق لنسخة العنسي بحرف (ع)، ورمز لنسخة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء المكتوبة سنة 1181هـ بحرف (ص)، ورمز لنسخة مكتبة الحرم المكي المكتوبة سنة 1286 بحرف (ح)، ورمز للنسخة الخامسة ب حرف (ك)، إلا أنه لم يوضح هل هي نسخة الجامعة الإسلامية المكتوبة سنة 1268هـ، أو نسخة الجامع الكبير بصنعاء المكتوبة عام 1305هـ، واعتبر المطبوعة المنقولة عنده عن خط المصنف هي الأصل.

ومنهج المقابلة بين النسخ يفرض اعتماد ما في الأصل ما لم يكن هناك مانع، وهو ما جرى عليه المحقق في الغالب، إلا أنه تعسف في ترجيح ما في الأصل كثيرا وإن خالف سائر النسخ، لا شيء إلا لأن ما تضمنته تلك النسخ في تقدير المحقق يخالف معتقد أهل السنة وعقيدة الأمير الصنعاني نفسه المطابقة لاعتقاد الشيخ محمد بن عبد

1- ديوان الأمير الصنعاني، المرجع السابق، ص 134، 135

الوهاب¹. وسأكتفي بنموذج واحد، وهو ما أورده الصنعاني في الأصل الثالث، أثناء حديثه عن توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وجاء في شرح الثاني منه قول الصنعاني: " فالرسل عليهم السلام بعثوا لتقرير الأول ودعاء المشركين [إلى الثاني]، مثل قولهم في خطاب المشركين: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: 10]، ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: 3]، ونهيهم عن شرك العبادة، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾². قال في الهامش: " كذا في الأصل، وتحرفت في (ع) و (ح) و (ك) إلى إليه، وتصحف التحريف في (ص) إلى [بالله]، وأما في طبعة الباحث محمد الصغير بن فائد - وفقه الله - (ص 47)، فاعتمد لفظة إليه! ولم يوفق، فيدرك أن هذا التحريف عقيدة كلامية قبورية فاسدة، عفا الله عني وعنه."

فانظر إلى ترجيح المحقق ما في الأصل، مع قرب ما بين رسم لفظي (الثاني) و (إليه)، ويقويه هذا القرب ما في نسخة (ص) الذي اعتبره المحقق تصحيحاً وتحريفاً، وأساس هذا الترجيح أن الوارد في النسخ خارج ما ورد في الأصل، عقيدة كلامية قبورية فاسدة!

أما ما يدل على احتمال تراجع الأمير الصنعاني على الكتاب، فالمعالجات الكثيرة الغريبة الواردة في تطهير الاعتقاد، مما يستبعد أن تصدر عن عالم مرجع مثل الأمير الصنعاني الذي أصبح مضرب المثل في ترك التقليد ونبد آراء الرجال. وقد أحصيت كثيراً من هذه الغرائب، منها ما وافق عليه المحقق وبين خطأ الصنعاني فيه، ومنها ما لم ينبه عليه، وسأقتصر على البعض منها وأحيل على الباقي.

الغريبة الأولى: وردت هذه الغريبة في سياق الكلام عن إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، ومثل الصنعاني بحال فرعون، فقال: " وهذا فرعون مع غلوه في كفره، ودعواه أقبح دعوى ونطقه بالكلمة الشنعاء، يقول الله في حقه

1- أكد المحقق أن الصنعاني استفاد كثيراً من الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رغم أن الأمير الصنعاني في طبعة شيوخ ابن عبد الوهاب، حسبما تفيد المقارنة التي عقدها الشحري بين كتابي تطهير الاعتقاد وكشف الشبهات. انظر - تطهير الاعتقاد، ص 69، هامش 7.

- والواقع أن الدافع الرئيس وراء كتابة هذا المقال، هو ما وقفت عليه خلال متابعتي لكشف الشبهات من التطابق مع تطهير الاعتقاد، في خصوص الأدلة المعتمدة أو في عموم سياقها، مما دفعني إلى افتراض اطلاع الصنعاني على كشف الشبهات لابن عبد الوهاب، بل افترضت ما هو أكثر من ذلك، وهو استبعاد أن يكون تطهير الاعتقاد من صياغة الصنعاني أصلاً، أو احتمال تصرف أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب فيه على الأقل، ثم أعرضت عن ذلك كلية؛ لأن الشواهد المعينة على إثباته غير متوفرة كفاية.

حاكيا عن موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائرٍ﴾ [الإسراء: 102] ¹.

وموضع الاستغراب أن في الاستدلال بالآية على إقرار فرعون بالربوبية نوع غموض؛ لأن غاية ما تدل عليه إلزام موسى عليه السلام فرعون بعدم إسناد المعجزات التي جاء بها إلى السحر، والاعتراف بأنها من الرب سبحانه وتعالى. هذا هو القدر المقطوع به من الآية، أما أن تدل على إقرار فرعون بربوبية الله تعالى فليس فيها ما يقطع به منها عليه. صحيح أنه يمكن أن يستفاد ذلك من ظاهر الآية أو من منطوقها، ما لم يتعارض مع ما هو مثله أو أقوى منه؛ كقوله عز وجل حاكيا عن فرعون: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ [طه: 42]، وقوله عز وجل ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: 24]، فظاهر الآيتين يعطي أن فرعون جحد الرب تعالى.

ويبدو أن المحقق انتبه إلى ذلك، فلم يعلق على الآية بشيء حتى لا يفسد جمال الاستدلال الذي تعود عليه الوهابية، ولو بذكر تمام الآية وهو قوله تعالى ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثيرا﴾. ومثل هذا يدعو إلى التحفظ من نسبة هذا الكلام إلى إمام مرجع كالأمير الصنعاني.

الغريبة الثانية: قال الأمير الصنعاني رحمه الله: "اعلم أن الله جعل العبادة له أنواعا، اعتقادية وهي أساسها... ومنها اللفظية: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها، لم يحقن دمه ولا ماله، وكان كإبليس؛ فإنه يعتقد التوحيد، بل ويقر به، كما أسلفناه عنه، إلا أنه لم يمثل أمر الله بالسجود، فكفر" ².

وهذه الغريبة أشد من الأولى، وهي تنادي لوحدها بنفي نسبة تطهير الاعتقاد إلى الصنعاني وارتفاع الثقة عن مجموعه، وتؤكد أن يد التصرف امتدت إليه. وبيانه أن منطوق كلام الأمير التسوية بين إبليس في الامتناع عن أمر الله فكفر، وامتناع المعتقد في كلمة التوحيد عن النطق بها فيكفر، بجامع اعتقاد إبليس وغير الناطق بالتوحيد وإقرارهما به. وهذا الكلام لا يصح أن يصدر عن عالم فضلا عن إمام مرجع كالأمير؛ فإن إبليس كفر بنفس الجحود والاعتراض، جحد تفضيل الله آدم عليه، وفضل حكم نفسه على حكم الله، ﴿أنا خير منه﴾ [الأعراف: 12]، ص: 76]، ولا كذلك الذي لم ينطق بكلمة التوحيد مع اعتقاده لها وإقراره بها؛ فإنه يؤمن بمطلق الاعتقاد ويفسق بمطلق الامتناع، وهو في كل الأحوال لا يشابه غير المعتقد لكلمة التوحيد، ولهذا أوله المحقق ومن علق على هذا

1- تطهير الاعتقاد، المرجع السابق، ص 37

2- تطهير الاعتقاد، المرجع السابق، ص 37

الموضع من الوهابية، بامتناع الإباء والكبر والعناد، والتأويل فرع مخالفة الظاهر، والعالم لا يصدر الحكم العام فيما يحتمل التأويل.

الغريبة الثالثة: قال الأمير الصنعاني رحمه الله: " فإن قلت: أفيسير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور... مشركين، كالذين يعتقدون في الأصنام؟. قلت: نعم، قد حصل منهم ما حصل من أولئك... فإن قلت: هؤلاء القبوريون يقولون نحن لا نشرك بالله تعالى، ولا نجعل له ندًا، والالتجاء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم ليس شركًا. قلت: نعم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، لكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك؛ فإن تعظيمهم الأولياء ونحرهم النحائر لهم شرك ... ¹."

قلت: أما الذي له حق التفريق بين الغيب والشهادة فذلك عالم الغيب والشهادة وهو رب العالمين، وأنا أكبر الأمير فارس ميدان الأدلة الشرعية أن يزّل في مضمار الغيوب والكشف عما تختزنه القلوب. صحيح للقرائن موازينها، لكنها لا تصلح لوزن الطّون التي يترتب عليها مفسد أشد من المصالح التي تحققها تلك القرائن؛ فإن القرائن التي تحكم على الأشخاص بالكفر، مما يترتب عليه خسران الدنيا والآخرة، يعملها الجهلة المتنطعون لا الفقهاء المتمرسون.

الغريبة الرابعة: قال الصنعاني: " فإن قلت: هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه. قلت: قد صرح الفقهاء في كتب الفقه، في باب الردّة أنّ من تكلم بكلمة الكفر يكفر وإن لم يقصد معناها ²."

نبه المحقق في الهامش أنّ الوارد في كل النسخ ما عدا الأصل خرج مكان صرح، وكان اللائق به دعما لهذا الاختيار أن يحدد الموضع الذي صرح فيه الفقهاء بذلك، كما أنّ اللائق بالصنعاني لو كان هذا الكلام له أن يرفع عنه اللبس؛ فإن إطلاق الكلام بهذا الشكل مخالف لأسلوب الفقهاء مناف لتدقيقاتهم، وهو ما حمل المحقق أن يؤوله بعدم الجهل؛ لأن ظاهر عدم القصد يحتمل الجهل والهزل، ولا شك أنّ من قال كلمة الكفر جاهلا بما داخل تحت هذا المعنى، فإن احتمال اندراج الهازل تحته لا يحتمل أن يندرج تحته الجاهل، كمن طلق بكلمة أجنبية وهو لا يعرف معناها.

1- تطهير الاعتقاد، المرجع السابق، ص 63، 64 بتصرف

2- تطهير الاعتقاد، المرجع السابق، ص 64، 65

الغريبة الخامسة: قال الأمير الصنعاني رحمه الله: " لا شك أن من قال لا إله إلا الله من الكفار حقن دمه وماله، حتى يتبين منه ما يخالف ما قاله... فأمرهم الله تعالى بالتشُّبُّ في شأن من قال كلمة التوحيد؛ فإن تبين التزامه لمعناها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإن تبين خلافه لم يُحقن دمه وماله بمجرد التلفُّظ. وهكذا كلُّ من أظهر التَّوحيد وجب الكفُّ عنه، إلى أن يتبين منه ما يخالف ذلك؛ إذا تبين لم تنفعه هذه الكلمة بمجرددها. ولذلك لم تنفع اليهود ولا نفعت الخوارج... فثبت أن مجرد قول كلمة التَّوحيد غير مانع من ثبوت شرك من قالها، لارتكابه ما يخالفها من عبادة غير الله ¹."

هذا الكلام هو نفس اعتقاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كما نص عليه في أهم رسالة له وهي كشف الشبهات ²، وهو بهذا السياق وهذا التدرج معروف عن الشيخ ابن عبد الوهاب. ونحن إن كنا وعيناه عن الشيخ ابن عبد الوهاب، لإعادته له في أكثر من رسالة، ولأنه هو لب دعوته التي عرف بها، فإننا نستغرب صدور مثله عن الأمير الصنعاني؛ لأنه لم يتكرر عنه في الأغلب في غير هذا الموضع، وهو ما يدعو إلى الحذر من نسبته إليه. وأهم ما يدعو إلى ذلك، قول الصنعاني في آخر الفقرة المستشهد بها عن كلمة التوحيد (لم تنفع اليهود). وكلمة التوحيد هي الشهادتان، وهذه إذا قالها الشخص تنفعه ما لم يأتي بما يناقضها. فلا أدري كيف يقول الأمير أمَّا لا تنفع اليهودي إذا قالها، إلا إذا قصد إجرائها على لسانه؛ كنحو ترجمة لفظ أو تقليد صوت، وهذا خارج عن محل النزاع؛ لأنَّ الناس ما زالوا يترجمون كتب المخالفين أو تقليد أصواتهم، ولم يوجب لهم ذلك تغيير مللهم ومعتقداتهم.

6. الشواهد المؤكدة على تراجع الأمير الصنعاني من خارج كتاب تطهير الاعتقاد:

- 1- تطهير الاعتقاد، المرجع السابق، ص 79، 80 بتصرف
- 2- هذا هو نفس تصور الشيخ ابن عبد الوهاب للتوحيد والشرك، وهو ما جعل الشيخ الشحري يعتقد تأثر الأمير الصنعاني به، وقد فككت هذا التصور في مقالة مطولة غير منشورة كتبها منذ ثلاث سنوات، اسمها تفكيك الشبهات من كشف الشبهات

كان ما ورد في الفقرة السابقة بعض¹ المواضع المستغربة من كتاب تطهير الاعتقاد عن أدراان الإلحاد، مما يبعث على التحفظ من نسبة جميع المتن إلى مؤلفه ويحمل على عدم الاستشهاد به وحده لنسبة رأي أو حكم لا يوجد في غيره. وسنقف في هذه الفقرة على ما يعزز هذا التحفظ، ويؤكد إن شاء الله تراجع صاحبه عنه. أشرت في تضاعيف هذا البحث إلى غزارة إنتاج الأمير الصنعاني، ولا شك أن هذه الغزارة كانت أهم أسباب انتشار آراء الرجل وإقبال الناس عليه، بسبب أنه كان يتناول كل القضايا التي يحتاجها المتلقي ويشبعها بالبحث والتقصي، فيجد المتلقي نفسه مضطراً إليه، لتوفر ما يبحث عليه عنده، بما فيها المباحث التي يتحاشى العلماء لتطرق إليها. وكانت أهم قضية تحاشى العلماء الحديث عنها هي قضية الاجتهاد، فخاض الأمير الصنعاني غمارها وحل عقدها، وهو ما أثار بلا شك حفيظة الناس عليه ودفعهم إلى الدس في كتبه ونشر الأكاذيب عنه، ومما يستأنس به في ذلك، ما ورد في أحد أشعاره، عندما أكثر عليه العوام من القيل والقال ونسبوا إليه أباطيل الأقوال²:

لقد نسب الأنام إلي قولاً
وقالوا قد رضينا بآبن هند
كذبتم إنه والله عندي
وملعون بما كسبت يدها
عليهم ربنا فيه شهيد
وقلنا إنه رجل رشيد
لفسيق وشيطان مريد
كذلك نجله الطّاغي يزيد

ومن أكثر المهتمين بإنتاج الأمير الصنعاني الشيخ محمد صبحي حلاق، وقد أحصى ما يقرب من 130 عنواناً، وله جهد مشكور في تحقيق مجموعة كبيرة منها³. وهذه الكثرة تؤكد ما قاله الأمير الصنعاني مما نقلته عنه سابقاً:

ولنا المسائل والرسائل
ئل عدّها أمر بعيد

وهناك ثلاث رسائل على الأقل تحمل نفساً مخالفاً لنفس تطهير الاعتقاد، اثنتان منها ذكرتا في جرد الشيخ حلاق؛ الأولى إرشاد ذوي الألباب إلى حقيقة مذهب محمد بن هبد الوهاب، والثانية محو الحوبة بشرح أبيات

- 1- تنظر المواضع المستغربة الباقية في المطان الآتية من كتاب تطهير الاعتقاد- 76، 79، 82، 87، 95
- 2- ديوان الأمير الصنعاني، المرجع السابق، ص 127. ترددت في كتابة هذا البيت، ثم رأيت أن الأمر أرفع من أن يتكتم عليه، والأفضل أن يفتح فيه باب المناقشة، لبيان الحدود الصحيحة لما أشيع عن تغير آراء بعض الشخصيات التي لم تعالج معالجة موضوعية.
- 3- ينظر مقدمة تحقيق تفسير غريب القرآن للصنعاني، ص 36، 43

التوبة¹، والرسالة الثالثة القول المبين في إحضار حجج الوهابيين. والثالثة من محفوظات جامعة الملك سعود، سنة 1937 م، ولولا ذكر التاريخ في أولها لاحتملت أن تكون من مؤلفات الصنعاني، ولذلك امتنع الشيخ حلاق من إضافتها إليه. أما محو الحوية بشرح أبيات التوبة، وهو الكتاب الذي شرح فيه الأمير قصيدة التراجع، أو أبيات التوبة كما هنا، فنظرا لعدم توفر متن الكتاب²، فسأضطر لنقل كل المقطع الذي نقله الشوكاني في معرض تعقبه على كلام الصنعاني. وليعذرني القارئ على نقل المقطع برمته؛ لأنه لا يمكن التحقق من تراجع الأمير الصنعاني إلا على هذا الوجه.

قال الشوكاني رحمه الله: " ومن جملة الشبه التي عرضت لبعض أهل العلم، ما جزم به السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير رحمه الله، في شرحه لأبياته التي يقول في أولها: رجعت عن النظم الذي قلت في النجدي؛ فإنه قال: إن كفر هؤلاء المعتقدين للأموات من الكفر العملي لا الكفر الجحودي. ونقل ما ورد في كفر تارك الصلاة، كما ورد في الأحاديث الصحيحة وكفر تارك الحج، كما في قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، ونحو ذلك من الأدلة الواردة فيمن زنى ومن سرق ومن أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً أو عرافاً أو قال لأخيه يا كافر. قال: فهذه الأنواع من الكفر وإن أطلقها الشارع على فعل هذه الكبائر؛ فإنه لا يخرج به العبد عن الإيمان ويفارق به الملة ويباح به دمه وماله وأهله، كما ظنه من لم يفرق بين الكافرين ولم يميز بين الأمرين. وذكر ما عقده البخاري في صحيحه من كتاب الإيمان (في كفر دون كفر)، وما قاله العلامة ابن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة من الكفر العملي. وتحقيقه أن الكفر كفر عمل وكفر جحود وعناد؛ فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً، فهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه، وأما كفر العمل فهو نوعان؛ نوع يضاد الإيمان ونوع لا يضاده، ثم نقل عن ابن القيم كلاماً في هذا المعنى. ثم قال السيد المذكور: قلت ومن هذا (يعني الكفر العملي) من يدعو الأولياء ويهتف بهم عند الشدائد ويطوف لقبورهم ويقبل جدرانها وينذر لها بشيء من ماله، فإنه كفر عملي لا اعتقادي؛ فإنه مؤمن بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وباليوم الآخر، لكن زين له الشيطان أن هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفعون ويضرون، فاعتقدوا ذلك كما اعتقد ذلك أهل الجاهلية في

- ينظر مقدمة تحقيق تفسير غريب القرآن، المرجع السابق، ص 38، 42

2- أحب أن ألفت عناية المهتمين برصد أدبيات الفكر الوهابي، أن دوائره حريصة على توفير كل الأدبيات التي تخدمه وتظهره، كما أنها حريصة على إخفاء الأدبيات الناقدة له أو المقللة من شأنه.

الأصنام، لكن هؤلاء مثبتون للتوحيد لا يجعلون الأولياء آلهة كما قاله الكفار إنكاراً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما دعاهم إلى كلمة التوحيد ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾، فهؤلاء جعلوا لله شركاء حقيقة، فقالوا في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فأثبتوا للأصنام شركة مع رب الأنعام، وإن كانت عباراتهم الضالة قد أفادت أنه لا شريك له؛ لأنه إذا كان يملكه وما ملك فليس شريك له تعالى بل مملوك، فعباد الأصنام الذين جعلوا لله أنداداً واتخذوا من دونه شركاء، وتارة يقولون شفعاء يقربونهم إلى الله زلفى، بخلاف جهلة المسلمين الذين اعتقدوا في أوليائهم النفع والضرر؛ فإنهم مقرون لله بالوحدانية وإفراده بالآلهية وصدقوا رسله، فالذي أتوه من تعظيم الأولياء كفر عمل لا اعتقاد، فالواجب وعظمتهم وتعريفهم جهلهم وزجرهم ولو بالتعزير، كما أمرنا بحد الزاني والشارب والسارق من أهل الكفر العملي. إلى أن قال: فهذه كلها قبائح محرمة من أعمال الجاهلية، فهو من الكفر العملي، وقد ثبت أن هذه الأمة تفعل أموراً من أمور الجاهلية هي من الكفر العملي، كحديث «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري، فهذه من الكفر العملي لا تخرج به الأمة عن الملّة، بل هم مع إتيانهم بهذه الخصلة الجاهلية أضافهم إلى نفسه، فقال " من أمي ".

فإن قلت: أهل الجاهلية تقول في أصنامها إنهم يقربونهم إلى الله زلفى كما يقوله القبوريون ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله كما يقوله القبوريون. قلت: لا سواء؛ فإن القبوريين مثبتون للتوحيد لله، قائلون أنه لا إله إلا هو، ولو ضربت عنقه على أن يقول إن الولي إله مع الله لما قالها، بل عنده اعتقاد جهل أن الولي لما أطاع الله كان له بطاعته عنده تعالى جاه به تقبل شفاعته ويرجى نفعه، لا أنه إله مع الله، بخلاف الوثني فإنه امتنع عن قول لا إله إلا الله حتى¹ ضربت عنقه، زاعماً أن وثنه إله مع الله، ويسميه رباً وإلهاً، قال يوسف عليه السلام: ﴿أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾، سماهم أرباباً؛ لأنهم كانوا يسمونهم بذلك، كما قال الخليل: ﴿هذا ربي﴾ في الثلاث الآيات؛ مستفهماً لهم ميكتاً متكلماً على خطابهم، حيث يسمون الكواكب أرباباً، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾، وقال قوم إبراهيم: ﴿من فعل هذا بالهتنا﴾، ﴿أ أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم﴾، وقال إبراهيم: ﴿أ أفكاً آلهة دون الله تريدون﴾. ومن هنا يعلم أن الكفار غير مقربين بتوحيد الربوبية، كما توهمه من توهم من قوله ﴿ولئن سألتهم من خلق ليقولن الله﴾، ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾، ﴿قل

1- هكذا ورد في النص، ولعله سقط منه لفظة (لو).

من يرزقكم من السماء والأرض " إلى قوله ﴿ فسيقولون الله ﴾ ، فهذا إقرار بتوحيد الخالقية والرازقية ونحوهما، لا أنه إقرار بتوحيد الإلهية؛ لأنهم يجعلون أوثانهم أرباباً كما عرفت، فهذا الكفر الجاهلي كفر اعتقاد ومن لازمه كفر العمل، بخلاف من اعتقد في الأولياء النفع والضرر مع توحيد الله وإيمان به وبرسوله وباليوم الآخر؛ فإنه كفر عمل. فهذا تحقيق بالغ وإيضاح لما هو الحق من غير إفراط ولا تفريط، انتهى كلام السيد المذكور رحمه الله تعالى¹. ويستفاد من هذا التحقيق والإيضاح أمور:

أ - أن الصنعاني رجع عما قرره في كتابه تطهير الاعتقاد رجوعاً ضرورياً، فلا ينسب إليه ما قاله فيه بعد هذا البيان، خاصة والناقل لهذا الكلام عصري الصنعاني وبلديه وموافق له في المذهب وأحد المتأثرين به في الدعوة إلى الاجتهاد. وإذا حكمنا بعدم رجوع الصنعاني عنه، فلا يفسر إلا على وجه عدم وقوف الشوكاني على كتاب تطهير الاعتقاد، كما حاول الشيخ سليمان بن سحمان توجيهه، ظاناً أن الناقل له هو صديق حسن خان في كتابه الدين الخالص².

ب - سواء كان الناقل لهذا الكلام الشوكاني كما هو مؤكّد، أو صديق حسن خان كما احتمله الشيخ ابن سحمان، فبعيد أن يجهل الرجلان كتاب تطهير الاعتقاد، بالأخص صديق حسن خان صاحب أجد العلوم. وإذا كان كتاب تطهير الاعتقاد للصنعاني كما هو شائع وذائع، فمؤكّد أن الرجلين يعلمان من حالة الكتاب ما يجعلهما يتفاديان الاستشهاد به على دفع المضمون المخالف له؛ من نحو التصرف فيه أو الرجوع عنه، أو الأحرى التوبة من مضمونه، فلا يريدان أن يحتكما إلى الصنعاني فيما تخلص منه.

ج - لا اعتراض بتعقّب الشوكاني أو غيره على كلام الصنعاني، فإن المقصود ببيان تراجع الأمير الصنعاني عنه إذا ثبت أن أصله الوارد في تطهير الاعتقاد له، أما إذا كان قد وقع التصرف فيه كما أرجحه، فذلك أحرى أن يتبرأ منه وينبّه على خطئ الاستدلال به.

7. خاتمة:

هذا، وإن الدافع الذي حدا بي لمراجعة نسبة كل ما ورد في تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد إلى الأمير الصنعاني، هو التشابه الكبير بينه وبين كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله إلى درجة المطابقة

1- الدر النضيد، المرجع السابق، ص 27، 31

2- تبرئة الشيخين، المرجع السابق، ص 86

بينهما، مما يفرض استفادة أحدهما من الآخر، ولا شك في مثل حالتنا من استفادة الصنعاني من الشيخ ابن عبد الوهاب، وهو دافع آخر حملي على التأكد من الحقيقة، خاصة وأهل التّراجم لا يحرصون تطهير الاعتقاد بالإشارة المناسبة، وعلى رأسهم الشّوكاني؛ لا في كتابه البدر الطّالع الذي ترجم فيه للصنعاني، ولا في مناقشته لمضمون محو الحوبة المخالف تماما لمضمون تطهير الاعتقاد، وهو ما يدفع إلى الاستفسار والافتراض في وضع الكتاب ودرجة اعتماده، عند الصنعاني وعند معاصريه من غير أتباع الدّعوة الوهابية.

وقد حملي هذا الشك على افتراض تسلل يد التصريف إلى تطهير الاعتقاد من طرف أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب، لما كان يمثل هذا العمل من تأييد ودفع كبيرين للدعوة الوهابية التي كانت محل رفض وسخط في الأوساط العلمية، فاضطر الوهابية إلى هذا التصرف لصالح الدّعوة وإنقاذها من الحملة الكبيرة التي قام بها الأمير الصنعاني ضدها. والذي يدعو إلى افتراض ذلك، أن كتاب تطهير الاعتقاد أو بالأحرى نشراته ونسخه موجودة بأيدي الوهابيين أكثر من تواجدها في البيئة اليمينية، بل على العكس انتشر في هذه البيئة رأي الصنعاني الذي استقر عليه في آخر أمره، على نحو ما تؤكده شهادات علماء يمينيين وهابيين، كما تفيد مواقع إلكترونية عن الشيخ مقل بن هادي الوادعي، وهو أحد كبار رؤوس الدّعوة الوهابية في اليمن.

ثم بعد كل هذا وذاك، فهذا العمل متابعة توثيقية لعمل علمي تحوم حوله بعض الاستفسارات التي تنتظر الإجابة، وكنت أتمنى لو قام به المحققون أنفسهم، لكن يبدو أن تمسكهم الشديد بالكتاب واعتباره أحد مراجع الفكر الوهابي، حال دون القيام بهذه المهمة الحرجة. وكنت قد قرأت في بعض المواقع الإلكترونية أن الشيخ أبا عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري انتهى من إثبات نسبة قصيدة التّراجع إلى الصنعاني، وبينما هو يراجع ملازم الكتاب ليرسلها إلى المطبعة، اتصل به حضرة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله ونصحه بعدم الإقدام على ذلك لما يترتب عليه من المفسدة، فامتثل الشيخ ابن عقيل لهذه النصيحة الغالية.



8. مراجع الكتاب:

[مراجع البحث مرتبة حسب ورودها في المقال]

- (1) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق الشّحري، مكتبة الإمام الوادعي، اليمن، ط1، سنة 1430هـ / 2009م
- (2) مسألة في الذّبائح على القبور وغيرها، محمد بن إسماعيل الصنعاني حقّقها وحرّج أحاديثها عقيل المقطري، مكتبة دار القدس، اليمن، ط1، 1413هـ / 1993م

- (3) نيل الوطر من تراجم أهل اليمن في القرن الثالث عشر، محمد زيارة، دون بيات الطبع
- (4) مطلع الأقمار ومجمع الأنوار في ذكر المشاهير من علماء مدينة ذمار، شرف الدين القاسمي، ط1، 1423هـ / 2002م
- (5) ديوان الأمير الصنعاني، قدم له وأشرف على طبعه مطبعة المدني، القاهرة، د ت
- (6) درر نحرور الحور العين بسيرة الإمام المنصور علي وأعلام دولته الميامين مطبوعات مكتبة الإرشاد، لطف الله جحاف، صنعاء اليمن، الطبعة الأولى، 1425هـ / 2004م
- (7) تبرئة الشيخين الإمامين من تزوير أهل الكذب والمين، سليمان بن سحمان، مطابع الرياض، ط2، 1377هـ
- (8) 8 - علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن آل بسام، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1419هـ
- (9) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، محمد بن علي الشوكاني، مطبعة المنار، مصر، ط1، 1340هـ
- (10) تفسير غريب القرآن للصنعاني، حققه وعلّق عليه وضبط نصه محمد صبحي حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1421هـ / 2000م
- (11) القول المبين في إحاض حجج الوهابيين. منسوب إلى الصنعاني، مخطوط من محفوظات جامعة الملك سعود، سنة 1937م
- (12) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد



